أسس البعث الحضاري
وعوامل تفعيله في الثقافة الإسلامية

إعداد

د/ يونس اعمر ملال

أستاذ محاضر درجة أ بقسم أصول الدين كلية العلوم الإسلامية

بجامعة أدرار بالجزائر

من ٦٤٥ إلى ٦٩٦

The Foundations Of The Civilizational And Activated Agents In Islamic Culture

Dr. Younes Amar Malal A
Lecturer in the Department of Fundamentals of Religion, Faculty of Islamic Sciences, University of Adrar, Algeria/

أسس البعث الحضاري وعوامل تفعيله في الثقافة الإسلامية

يونس اعمر ملال
قسم أصول الدين كلية العلوم الإسلامية بجامعة أدرار بالجزائر
البريد الإلكتروني:younesnoun73@gmail.com

ملخص البحث:

تناول الباحث مسألة إشكالية تخص الثقافة الإسلامية وعلاقتها بأسس البعث الحضاري وعوامل تفعيله، فاستخلصت الدراسة أسس البعث الحضاري باعتبار أن الحضارة عمران معنوي ومادي يقوم به الإنسان انطلاقا من مبدأ وصولا إلى غاية، ومبدأ التعمير بالنسبة للمسلمين هو الإسلام، كما أن الحضارة لها لب تقوم عليه وهو العلم والإيمان وروح تسدد مسارها وهي القيم والأخلاق، وميدان تتحقق فيه وهو رقعتها الجغرافية وغاية معنوية تسعى إليها من خلال التعمير المادي من بناء وصناعة وتجارة وغير ذلك.. وهي سعادة الإنسان. بحثت في المبحث الأول الكمون الحضاري المتعلق بهذه الأسس في الثقافة الإسلامية، فوجدت أن ثقافتنا غنية بالمعاني التي تدفع للبعث الحضاري، غير أن الحضارة أيضا جهد مستمر وكسب تجهَد الأمة في بذله وعطائه، وهذا ما دفعني إلى البحث من خلال المبحث الثاني في عوامل تفعيل هذا الكمون للبعث الحضاري، إذ لا تتقدم أمة ما إلا إذا تحولت الأفكار في مجتمعها إلى قوة دافعة، ولا قيمة لفكرة في المجال الحضاري مهما بلغت دقتها وصحتها ما كانت مجرد ترف بارد، وقد وجد الباحث أن من عوامل التفعيل: الاجتهاد الحي، والجهد الدافع للبناء الذي يبذله المسلمون، فكان المبحث الأول لتصحيح الفهم، والمبحث الثاني لتفعيل الإنجاز.

الكلمات المفتاحية: أسس البعث الحضاري؛ الثقافة الإسلامية؛ الحضارة الإسلامية.

The Foundations Of The Civilizational And Activated Agents In Islamic Culture

Younis A Omar Malal

Department Of The Assets Of Religion At the University Of Adrar At Adrar University In Algeria

Email: YouNesnoun73@gmail.com

Research Summary

The researcher addresses a critical issue in Islamic culture and its relationship with the foundations of civilizational revival and the factors that activate it. He identifies the fundamental principles of civilizational revival, considering civilization as both a material and spiritual construct developed by humans from a foundational principle toward a specific goal. For Muslims, the principle of development is Islam itself. Civilization has a core foundation, which is knowledge, and a guiding spirit that directs its course, which is values. It also requires a geographical domain for realization and aims ultimately at achieving human well-being through development, including construction, industry, trade, and other aspects of progress.

In the first section, the study explores the latent civilizational potential inherent in Islamic culture and finds that Islamic culture is rich in meanings that drive civilizational revival. However, civilization is also a continuous effort and an achievement that requires ongoing contributions from the community. This realization led the researcher to investigate, in the second section, the factors that activate this civilizational potential. No nation advances unless its ideas transform into a driving force within society. Moreover, no idea holds value in the civilizational context, no matter how precise or valid, if it remains a mere intellectual luxury.

Therefore, the researcher identifies key activation factors, including dynamic intellectual effort (ijtihad) and the constructive efforts exerted by Muslims in building and progress. Consequently, the first section aims to correct conceptual understanding, while the second section focuses on motivating action and achievement.

Keywords: Foundations Of The Civilizer; Islamic Culture; Islamic Civilization.

مقدّمة:

اهتم الإسلام اهتماما كبيرا بموضوع الحضارة والعمران البشري، وتناول القصص القرآني أحوال الشعوب والأمم ارتقاء ونكوصا على الأعقاب، قال الله تعالى على لسان النبي صالح : "وإلى ثمود أخاهم صالح قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب"[١] قال القرطبي رحمه الله: استعمركم فيها أي جعلكم عمّارها وسكّانها،[٢] فعمارة الأرض نعمة يمنّ الله بها على عباده، كما منّ على قوم عاد، وعلى قوم سبأ وغيرهما من الأقوام في القرآن الكريم، وطبيعة الإسلام شمولية، فهو يهتم ببناء الفرد على الفضيلة كما يهتم بإنشاء الأمة على الخيرية.

أهمية الدراسة : تعاقبت على البشرية حضارات كثيرة تداولت على حكم الأرض، غير أنها لم تكن جميعا تحمل الخير للناس، فمن الحضارات ما حمل للإنسانية الدمار والويال، ومن هنا تظهر أهمية الضمانات التي تجعل خلافة الإنسان على الأرض فردا وأمة خلافة صلاح وإصلاح غير سافكة للدماء أو مفسدة في الأرض، وهذه الضمانات ليست سوى أن تقوم الحضارة على موازين القرآن الكريم، وعلى قيم الثقافة الإسلامية، فإن قيام الحضارة الإنسانية على أي من الأفكار والإيديولوجيات البشرية، يمينية كانت أم يسارية ستستصحب لا محالة ذلك الضعف البشري معها، وما كان الله ليذر الناس يتخبطون في غيابات جب الجهالة دون أن يرسل الرسل ويبين للناس كيف يعيشون على أرض الله بالحق، وكيف يمتلكون وسائل القوة النفوذ التي بها يفوّتون فرص الفساد على الباطل وأهله، وكم من حق يضيع، وكم من باطل يجول سنين عديدة، بسبب اختلال الموازين الحضارية بين الناس، إذا امتلك صاحب الفكر الفاسد وسائل الحضارة، وأحاطت بصاحب الفكر السديد عوامل الضعف، فيصير الحال إلى ما نراه في واقعنا المعيش، صاحب العين البصيرة يده قصيرة، والعميان يقودون العمران.

---

(١) هود، آية ٦١

(٢) تفسير القرطبي الجزء ٩، ص ٥٦.

وهذه الدراسة تندرج ضمن الدراسات التي تحاول فهم العلاقة بين الثقافة الإسلامية وأسس انبعاث الحضارة لرسم المنهج الكفيل بتجاوز هذه الإشكالية، وإعادة اللحمة بين قيم الثقافة الصحيحة وصناعة التاريخ.

أسباب اختيار الموضوع:

يرجع سبب اختيار الموضوع إلى سبب شخصي وآخر موضوعي، أما السبب الشخصي فهو شعوري كدارس مسلم، بين الهوة الكبيرة التي تفصل قيم الثقافة الإسلامية عن واقع المسلمين، ولا شك أن غيرة المؤمن على دينه وعلى أمته تفرض عليه السؤال المستمر لماذا لم تتحول قيم الثقافة الإسلامية إلى بعث حضاري إسلامي حقيقي ينتفع به المسلمون والإنسانية كافة من ورائهم؟ وأما السبب الموضوعي، فهو اهتمام الثقافة الإسلامية من حيث هي تخصص علمي بواقع الأمة وشؤونها، وحاضر العالم الإسلامي من التقدم والتقهقر، لأجل ألا يبقى المسلمون متأخرين عن ركب الحضارة الإنسانية، لذا اهتممت بدراسة هذا الجانب من الثقافة الإسلامية، ألا وهو جانب الأسس والمرتكزات الحضارية في ثقافة الإسلام، والتي ترشد المسلم إلى الفكر الإسلامي السديد الذي يمكنه من سد الفجوة وردم الهوة التي تحول بينه وبين أن تكون أمته ذات حضارة شامخة تشيع بين الناس قم العدل والحق والخير وتحرسها بقوة.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى بيان أمرين:

- أسس البعث الحضاري: التي تتضمنها الثقافة الإسلامية.
- عوامل تفعيل هذا البعث: لينتقل من النظرية إلى التطبيق، ذلك أن الدراسات الحضارية لا تكتمل في تقديري إلا بدراسة تفعيل الأفكار وشروط دافعيتها.

منهج الدراسة:

اعتمدت دراستي على المنهج التحليلي النقدي، فقد قمت بتحليل الأسس الباعثة للحضارة في أصول ثقافتنا الإسلامية، ومنها العلم والمعرفة، القيم والأخلاق، عمارة الأرض، وغيرها.. كما قمت بنقد الرؤى التي ترجع التخلف الحضاري الذي تعيشه الأمة إلى الإسلام وثقافته، أو تغفل عن كسب الإمة ودورها في تجسير العلاقة بين قيم الإسلام وواقع الحال، وغير ذلك.

الدراسات السابقة:

لم أجد دراسات تناولت موضوعا أفرد أسس البعث الحضاري وتفعيله في الثقافة الإسلامية، لكن هناك دراسات تناولت مشكلات الحضارة في العالم الإسلامي كدراسات الأستاذ مالك بن نبي، ودراسة صبحي الصالح، ودراسة ألبرت شفيتزر وغيرهم، حيث استفدت منها ومن غيرها على النحو الآتي:

- **شروط النهضة، مالك بن نبي، الذي توصل فيه إلى أن عناصر الحضارة الأساسية هي: الإنسان والتراب والزمن، وربط فيه بين توجيه الثقافة وانبعاث الحضارة، كما ركز على أن الحضارة بناء لا تكديس، وأن الدين أو الفكرة الدينية هو ما يربط عناصر الحضارة ببعضها، وقد أفادني هذا الكتاب كثيرا، لكنني فصلت أكثر في أسس الحضارة فجعلتها ستة أسس.**
- **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي: تقاطع موضوع هذا الكتاب مع بحثي في الأفكار الباعثة للحضارة، فأفادني في موضوع التفرقة بين صحة الأفكار وصلاحيتها حسب سياق الواقع والتاريخ، كما أفادني في إدراك الأفكار الميتة والقاتلة.**
- **مشكلة الثقافة، مالك بن نبي: وهذا الكتاب استفدت منه التعريف الوظيفي للثقافة بوصفها برنامج عمل من أجل البعث الحضاري يشتمل على المبدأ الأخلاقي، والذوق الجمالي، والمنطق العملي، والصناعة، وهي عناصر ضمنتها في هذه الدراسة باعتبارها من أسس البعث الحضاري في ثقافتنا الإسلامية.**
- **الإسلام ومستقبل الحضارة، صبحي الصالح، وهو كتاب موسع في موضوع الحضارة والثقافة الإسلامية، أفادني كثيرا في استخراج الكمون الحضاري الذي تكتنزه ثقافتنا الإسلامية فيما يتصل بأسس البعث الحضاري.**
- **فلسفة الحضارة، ألبرت شفيتزر: وهو كتاب متميز، أفادني في فهم الربط الذي يقيمه فلاسفة التاريخ بين القيم والأخلاق وبين الانبعاث أو الأفول الحضاري، كما أفدت منه في الربط بين قيام الحضارة ونظرية المعرفة، أي أصول الثقافة.**
- **الإيمان وأثره في الحياة، عبد المجيد النجار: أفادني هذا الكتاب في جعل الإسلام وثقافته عقيدة وشريعة نوعا من الحقائق الكونية الموضوعية المرتبطة بالفطرة الإنسانية والضرورية لبعث الحياة الحضارية.**

هذه بعض الأفكار الأساسية التي ميزت هذه الدراسات واستفدت منها مع غيرها من الدراسات، غير أن دراستي وإن تقاطعت مع هذه البحوث فهي تختلف عنها في إفراد أسس البعث الحضاري في ثقافتنا الإسلامية بالتحليل وبيان كيفية تفعيلها بالجهد والاجتهاد، وجمع ما تفرق من الموضوع في بطونها، وأسلوب العرض المعتمد الذي يجمع بين التحليل والتأصيل.

خطة البحث:

من أجل دراسة هذا الموضوع المهم، قسمت هذا البحث إلى مبحثين ومطالب بينت في المبحث الأول: أسس البعث الحضاري في الثقافة الإسلامية، باعتبار هذا الدين سنة حضارية عامة، ومنظومة فكرية متكاملة، صالحة للبناء الحضاري، ثم عرجت في المبحث الثاني على استخلاص عوامل تفعيل أسس العمارة الحضارية في أصول الثقافة الإسلامية، أي نقلها من الحقائق النظرية إلى الواقع والتاريخ، لتصير فاعلة في حياة الناس، وذلك في مطالب على النحو الآتي:

المبحث الأول: أسس البعث الحضاري في الثقافة الإسلامية

المطلب الأول: جوهر البعث الحضاري في الثقافة الإسلامية

المطلب الثاني: روح الحضارة في الثقافة الإسلامية

المطلب الثالث: مظهر الحضارة في الثقافة الإسلامية

المطلب الرابع: وعاء الحضارة في الثقافة الإسلامية

المطلب الخامس: ميدان الحضارة في الثقافة الإسلامية

المطلب السادس: غاية الحضارة في الثقافة الإسلامية

المبحث الثاني: عوامل تفعيل البعث الحضاري في الثقافة الإسلامية

المطلب الأول: عوامل تفعيل الثقافة الإسلامية وتكاملها

المطلب الثاني: الاجتهاد لتفعيل البعث الحضاري بين الإغلاق والانغلاق

المطلب الثالث: الاجتهاد لتفعيل البعث الحضاري بين الفاعلية والعقم والتدمير

خاتمة: نتائج البحث وتوصياته.

المبحث الأول

أسس البعث الحضاري في الثقافة الإسلامية

الإنسان حيوان ناطق، وكائن مدني بطبعه، وهذا ما قرره فلاسفة الإغريق وعلماء الاجتماع، لكن علماء الأنثروبولوجيا في وقتنا المعاصر قرروا شيئا أعمق وأصح، وهو أن الإنسان كائن متدين، فقالوا: "إن تاريخ الإنسان يشهد بأنه لم يخل مجتمع إنساني قط من الإيمان بإله يتخذه معبودا.. وقد شاعت هذه الحقيقية بين الدارسين والمفكرين حتى أوشكت أن تصبح مسلمة بين كل الناظرين في تاريخ الإنسان، يقول هنري برغسون:" لقد وُجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون، لكن لم توجد قط جماعة بغير ديانة" (١).

الدين إذن حقيقية موضوعية لا فكاك للإنسان عنها، إنه فطرة تجد أصولها في عمق النفس الإنسانية، وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم بالقول: " وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين"(٢) وقال سبحانه:" وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين" (٣).

ولذلك يعتبر الإلحاد المحض، محض خراقة، أو نوع من المرض النفسي المتولد عن أهواء النفس، وليس أبدا فكرة على الإطلاق، فأعماق

---

(١) عبد المجيد عمر النجار، الإيمان وأثره في الحياة، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٧م، ص٣٦.

(٢) الأعراف، ١٧٢

(٣) النمل، ١٤

النفس تكذب أوهام الخاطر التي تقول ليس لهذا الوجود من موجد حكيم عليم، فالإيمان بدين الله الحنيف هو فطرته التي قامت عليها السماوات والأرض "فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون"[١] .

ويمكن للفطرة الإنسانية النقية أن تشوه، فيتخذ الناس آلهة أخرى من دون الله، وهو " تعبير خاطئ عن أصل الفطرة الموحدة"[٢]. أما أن تقوم فكرة في الوجود على الإلحاد فهذا ما لا يمت إلى الحقيقة بصلة، فكيف لعقل سوي أن يسلم بأن العدم ينشئ وجودا " أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون"[٣].

و" حينما تقوم فلسفة أو نظام اجتماعي على دعوى النكران للدين وعلى رأسه نكران الوجود الإلهي، فإنه عند التأمل يتبين أن ذلك النكران ليس إلا نكرانا ظاهريا للدين، وأنه في الواقع ينشأ عند المنكرين ضرب من التدين يعوض في نفوسهم التدين الحقيقي، وهو تدين يتمثل في نزوع إلى تقديس موجود معنوي أو مادي، يحل في النفوس محلا يشبه المحل الذي يكون لله في نفوس المؤمنين، فإذا هو في الحقيقة ضرب منحرف من التعبير عن المكنون النفسي لفطرة الإيمان [٤].

الإنسان مفطور على التدين، هذه حقيقة ثابتة، وسنة إلهية لا تقبل التحدي والمعاندة، لكن الذي يقبل التحدي على مدى يطول أو يقصر هو التزام الناس للدين الصحيح أو اعراضهم عنه. بمعنى أنه لا يمكن للإنسان أن يخلع

---

(١) الروم، ٣٠.

(٢) عبد المجيد عمر النجار، مرجع سابق، ص٣٦.

(٣) الطور، ٣٥-٣٦

(٤) المرجع السابق، ص ٣٧.

عن نفسه شعوره بالحاجة إلى الدين، فذلك مغروز في فطرته، لكنه يمكن ألا يعبد الله تعالى ولكن يعبد غيره، أو يشرك به غيره.

والإنسان غير مؤهل لأن يتدين تدينا صحيحا دون انحراف من تلقاء نفسه، ذلك أن فطرته غير مصونة ذاتيا عن التشوه، وربما طمرت بعد طول أمد من اجتيال الشيطان له، وقسوة قلبه الرابض تحت أنقاض الضلالات الكثيرة، ولذلك أنزل الله الكتب، وبعث الرسل مبشرين ومنذرين، يحافظون على نقاء الفكر وصفاء الفطرة، ويرسخون المعاني الأساسية التي تمكّن الإنسان من تحقيق طمأنينته وسعادته على الأرض ويوم العرض.

لقد حارب القرآن الكريم المشركين من عبدة الأوثان، وكذا عبدة الدرهم والدينار، وعبدة الجاه والسلطان، وعبدة الهوى، والدهريين من عبدة الطبيعة، وكذا المنحرفين عن التوحيد من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وهذا أكثر من أن يحصى في كتاب الله.

وفي المفهوم الحضاري والتاريخي لما اشتمل عليه القرآن الكريم في هذا السياق، فإن كل هذه العقائد تحمل فكرة دينية[1] "غير صحيحة" في وجه من وجوهها أو في كل وجوهها عن الوجود وما بعد الوجود. ومن ثم فهي غير صالحة لوراثة الأرض أو قيادة البشر أو إسعاد الخلق، إنها أفكار عقدية امتزج بها النقص البشري فهوى بها عن الكمال، وكل خطأ أو ضلال يختلط بها

(١) استعملت هذه العبارة هنا بالمعنى الذي استعمله الأستاذ مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة، بمعنى المذهب الفكري أو الأيديولوجيا سواء كانت منبثقة من دين سماوي أو ديانة وضعية أو حتى مذهب فلسفي، فطالما أن جماعة من الناس تكون منساقة وراءها مستسلمة لأحكامها فهي دينها الذي تدين به. ينظر: شروط النهضة، (فصل: أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة) ص٦١

سوف يجعلها تصطدم بحقيقية الوجود ووظيفة الخلق، وهذه مسائل موضوعية لا فكاك للإنسان عنها، فالخالق وحده من يحيط علما بكل أسرار خلقه.

لذلك كانت هذه الأفكار الدينية الناقصة أو المحرفة، تحمل عامل التدمير الذاتي وانتقام الأفكار الخاطئة من أصحابها " فالأفكار المخذولة.. لها انتقام رهيب" [١]، والأيديولوجيات الخاطئة لا ترفع أصحابها إلا لتضعهم، ويضحي من أجلها الناس فتفسدهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فإذا أرادت البشرية عمرانا يرفع ولا يخفض، ويهدي ولا يضل، فلا مناص من الاستمساك بحبل هذا الدين.

وبالنظر للحياة الحضارية التي تعيشها الأمم، نستخلص أن الحضارة ترتكز على ستة أسس كل أساس منها يجعلها كالكائن الحي الذي تنقطع أنفاسه بانقطاع أعضائه.

- فالأساس الأول: هو العلم والإيمان، وهما مخ الحضارة وجوهرها ولبها.
- والأساس الثاني: هي الأخلاق والقيم وهي روح الحضارة التي بدونها ينهار العمران.
- والأساس الثالث: هو ذوق الجمال والنظافة والنظام، وهو مظهر الحضارة وثوبها القشيب الذي بدونه تبدو عارية، أو منفرة لكل صاحب ذوق سليم،
- والأساس الرابع: الوقت أو الزمن، وهو وعاء الحضارة الرباني الذي يشمل الماضي والحاضر والمستقبل " وتلك الأيام نداولها بين الناس"[٢] "ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون"[٣].

---

(١) ينظر: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ص ١٦٠

(٢) آل عمران، ١٤٠.

(٣) الأعراف، ٣٤.

- والأساس الخامس: هو الاستخلاف في الأرض أو قل في الحياة الدنيا بمعنى أشمل وهو ميدان الحضارة وبيئتها الطبيعية التي تحتوي منجزاتها وكسب الإنسان على ظهر الأرض.
- وأما الأساس السادس: فهو سعادة الإنسانية التي تبشر بها الحضارة وهي غاية الحضارة التي تجعل من الإنسان سببا فيها وغاية لها، ذلك أن الإنسان هو ومحور الحضارة وغايتها معا.

وإذا كانت هذه هي الأسس الباعثة للحياة الحضارية، وأن الإنسانية لن تحققها كاملة إلا في ظل فكرة صحيحة عن الوجود وصانع هذا الوجود، وإذا كانت الفكرة الدينية الصحيحة القادرة على بعث الحضارة الإنسانية هي الفكرة الشاملة المحيطة بجميع عناصر الحضارة ومتطلباتها، والمتعالية عليها في ذات الوقت عليها. فلن تكون هذه الفكرة الدينية سوى ثقافة الإسلام التي تغذي مخ الحضارات وترفع روحها، وتزين مظهرها، وتهتم بوعائها ولا تحقر ميدانها، وتحقق غايتها، وتبين دور الإنسان في بعثها دون أن تضحي به من أجلها، ومن خلال هذه الأسطر المركزة سأحاول بيان أسس بعث الحضارة هذه كيف تزخر ببيانها الثقافة الإسلامية الصحيحة؟

المطلب الأول: جوهر الحضارة في الثقافة الإسلامية

أسال موضوع الإسلام والعلم والإيمان كثيرا من حبر العلماء، وليس المقصد هو تكرار ما كتبوه، ولكن بيان موقف ثقافة الإسلام، بوصفه دينا، من العلم والعلماء من زاوية البعث الحضاري، ومن هذه الزاوية بالذات نجد أن الإسلام قد احتفل بالعلم كما لم يفعل أي دين، فكانت آية أنزلت على قلب

رسول الله صلى الله عليه وسلم " اقرأ باسم ربك الذي خلق"[١] ، و"سورة القلم " هي ثاني سورة أنزلت وهي تشيد بأداة التعلم التي اشتق منها اسم السورة.

فتح القرآن عقول الناس على النظر قبل الاعتقاد وجعل جمهور علماء العقيدة أول واجب على المكلف" النظر" ولم يجوزوا إيمان المقلد، كما جعل الإسلام الكون المادي ساحة للعلم، وضمن ثبات سنن الله المطردة دون أن يهدر صلتها بالله، أو ينفيها بدعوى الإيمان به والتوكل عليه كما فعلت بعض الأديان والمذاهب.

إن أعظم هبة قدمها الإسلام للإنسان هي وضعه في جو علمي وصحي، علمي لأنه يحفظ الأسباب، وصحي لأنه لا يقطعها عن الله. فقرر القرآن أن سبب تكريم الله لآدم وتأهيله لخلافة الأرض هو العلم " وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال يا آدم أنبئهم بأسمائهم"[٢] ، وسبب تكريمه للإنسان هو العلم: " ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر"[٣]، ورفع العلماء والمؤمنين درجات: " يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات"[٤].

وجعل الإسلام العلم بابا للحرية، فكلما ازداد الناس علما ازدادوا تحررا من قيود المادة، كما جعل التوحيد رأس التحرر، فكلما توثقت صلة العبد بالله تحرر من داعية هواه، وجعل الإسلام العلم مدخلا للقوة، كما جعل الإيمان عين القوة "ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين"[٥]، وكذا جعلهما

(١) العلق، الآية ١.
(٢)البقرة، ٣٣.
(٣) الإسراء، ٧٠.
(٤) المجادلة، ١١.
(٥) آل عمران، ١٣٩

الإسلام كلاهما سبيلا للسعادة إذا اجتمعا، وفي كل هذه المعاني نصوص كثيرة فلا يستوي عند الله الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

والعلم الذي عناه الإسلام ليس هو العلم بالدين وأحكامه فحسب، ولكنه العلم بالدين وبالدنيا معا، العلم بسنن الله الشرعية والعلم بسنن الله الكونية، العلم بوسائل القوة والعلم بحسن توظيفها.

ولا شك أن ابتعاد المسلمين عن هذا المناخ العلمي الذي وهبه القرآن الكريم للإنسان واهتمامهم بنتائج العلوم الحديثة واكتفاؤهم بمطابقتها مع بعض آيات القرآن الكريم، وانكفاؤهم على مجرد الافتخار بالسبق الإلهي، هو أحد أهم عوامل الضعف لديهم.

أضف إلى ذلك زهد الأمة الإسلامية في العلوم الحديثة، ومؤاثرتها السلامة بالقول إن هذه العلوم من منتجات الحضارة الغربية، بدل البحث المعمق في أسس العلوم ومناهجها، ثم تصفيتها بالفصل لما هو علم عمّا ليس بعلم، فقد يكون فلسفة أو عقيدة أو أيديولوجيا وما إلى ذلك من خصوصيات الثقافة الغربية التي يتوهم البعض أنها علوم.

وليست أصول العلم ووظائفه كما حددها القرآن الكريم مفيدة للأمة الإسلامية وحدها في بعثها الحضاري، بل هي مفيدة كذلك في تجاوز الإنسان المعاصر – على اختلاف انتمائه العقدي– لعقدة التصادم بين الدين والعلم، تلك التي تتسبب في انشطار الإنسانية، وتسبب أزمة حقيقية في الحضارة المعاصرة. فالحضارة الإنسانية محتاجة إلى المضي في طريق العلم، لكنها محتاجة كذلك إلى حماية نفسها من بعض نتائجه المدمرة، حين يتجاوز العلم حدود الأخلاق ويريد السطو على الفطرة الإنسانية وتغيير خلق الله.

والعلم المادي التجريبي بحكم طبيعته المنحصرة في المشاهدات الكونية لا يمكن لوحده أن يكون أساسا لحضارة إنسانية مكتملة إذا ما اعتبر وسيلة

وغاية في آن واحد. وأكبر ظلم ألبسته حضارة الغرب للعلم المعاصر هو إقحامه في الأيدولوجيا المادية، وليس من العدل أن نحكم على العلم بالعجز لمجرد أن العقلية الغربية قد أقحمته فيما ليس له به علم، لتملأ بالعلم الفراغ الكوني الفلسفي والديني لديها، وذلك ما يعد في الحقيقة مرتبطا بتاريخية الغرب في صراعه مع الدين عموما ومع الكنيسة كما هو معروف[١].

لقد أُخلط " العلم التجريبي" بالجهالة المادية والكنسية فتحول إلى علم تخريبي، وحكم على الدين الحقيقي من خلال الجهالة المادية والكنسية والإقطاعية، ثم قيل إن الدين أفيون الشعوب؟! وهو وضع غير صحيح للأشياء، كان لابد أن يفجر أزمة في الضمير الإنساني، والمنتصر في هذه الأزمة خاسر. وما زلنا نرى سنة بعد أخرى العواقب الوخيمة لزوال سلطان الدين وما تبعه من زوال للوازع الروحي والخلقي من آثار لها الدور الكبير في إضعاف الحضارة الغربية والإنسانية عموما، وكل ذلك من أثر انفصال العلم عن الدين [٢].

فإذا كانت الإنسانية جادة في تخطي الحضارة المعاصرة وتصحيح مسارها، وإذا كانت الأمة الإسلامية جادة في الاستفادة الحقيقية من العلم . كرصيد إنساني مشترك . فعلى الجميع أن يتوجهوا إلى تصحيح الوضع الخاطئ الذي وضعت فيه الحضارة الغربية كلا من العلم والدين. وذلك من خلال ما تعرضه الثقافة الإسلامية من أسس ووظائف لكل منهما، ليصير في كنف الثقافة الإسلامية العلم دين والدين علم كما قال سبحانه وتعالى: "فاعلم أنه لا

(١) ينظر: أحمد السيد علي رمضان، العلم والدين بين الإسلام والفكر الغربي دراسة مقارنة، ص ٢٣ وما بعدها

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص، ٨١.

إله إلا الله"[١] وقال عز من قائل: "إنما يخشى الله من عباده العلماء"[٢] أوليس العلم هو صفة كاشفة لما خلق الله في هذا الكون المادي والمعنوي من الأسرار؟ أفلا يكون الإنسان أعرف بالله وأتقى له كلما كان أعرف بأسرار خلقه؟ بلى ولذلك حصرت خشية الله الحق في العلماء الذين يعرفونه بحق، وشتان بين هذه الثقافة الإسلامية، وبين ثقافة غربية وضعت الضمير الإنساني بين احتمالين أحلاهما مر وهما: أن تكون متدينا جاهلا أو عالما ملحدا، وتلك أزمة الغرب حين ربط بين الدين والخرافة وبين العلم والاستعلاء على الله، وصدر أزمته إلى العالم وأصابه بدائه.

المطلب الثاني: روح الحضارة في الثقافة الإسلامية

ترتقي الحضارة كما يرى اشفيتزر بارتقاء الأخلاق وتزول بزوالها[٣]. فالفكرة الصحيحة عن الأخلاق وأسسها ودورها في تزكية الفرد وربط الوشائح الاجتماعية وكيفية تحقق المجتمع بها، هي الضامن للاستمرار الحضاري، إذا استمرت الفاعلية الحضارية، فلا يرتقي الإنسان بدون نظرية في المعرفة، ولا يرتقي بدون الأخلاق[٤].

والأخلاق هي الفعل الإرادي الذي يكون مطابقا لصورة الواجب ومخلصا لله، ويكون طبعا في السجايا النفيسة، وتطبعا في غيرها، يحرص عليه كل من يحرص على الفضائل، حتى يصل إلى صدوره عن النفس بلا تكلف، غير أن الأخلاق قد تفهم بأنها الأخلاق الفردية وحدها، وقد تفهم بأنها أخلاق المجتمع التي تذيب الأفراد وتقضي على بواعث الإبداع فيهم، وقد قد يكون المقصود

---

(١)محمد، ١٩.

(٢) فاطر، ٢٨.

(٣) ألبرت شفيتزر، فلسفة الحضارة، ترجمة عبد الرحمان بدوي، ص ٥

(٤) المرجع السابق، ص ٧-٨

بها الأخلاق السلبية التي تؤثر الزهد في الدنيا، والاعتزال عن معترك الحياة. وكل هذه الأنواع لا تصلح لقيادة الإنسانية، طالما أنها تحفظ كرامة الفرد لتهدم توازن المجتمع، أو تحفظ المصالح الاجتماعية لتجعل من الفرد عبدا لها، فتقتل فيه الإبداع الذي هو سر التطور الحضاري، أو تعتزل ساحة الوجود المادي لتتحول إلى عنصر حيادي في الحياة.

إن الأخلاق التي يمكن أن تبعث الحضارة وتحافظ عليها . إن تحققت لها شروط الفاعلية . هي الأخلاق الإسلامية التي توازن بين قيمة الفرد وقيمة المجتمع، ضمن نظام الاستخلاف، ذلك أن الثقافة الإسلامية تجعل" تزكية النفس" سبيلا لأداء الواجب نحو الآخرين، وتضع المؤمنين أمام رقابة داخلية تنميها باستمرار التربية الإسلامية، وهي الإحساس "برقابة الله" فضلا عن رقابة المجتمع ورقابة التشريع.

وحينما وصف الرسول الكريم دوره في رسالته الإسلامية السمحة قال: " إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"[1]، وجعل الدينَ حسن الخلق في جوامع كلمه. فالقيمة الأخلاقية هي قيمة مميزة للوجود الإنساني الراقي في تقدير الإسلام، ومن ثم صُبغت كل أحكام الإسلام بالصبغة الأخلاقية.

إن دور الأخلاق في البعث الحضاري هو ربط الوشائح الاجتماعية كما وكيفا لتقوية كيان الأمة، فليس كالإسلام دين اهتم بعلاقات الجوار وأصول المعاملة بين المسلمين، وكذا بينهم وبين غيرهم من الأمم.

وهذه العلاقات هي أساس القوة الاجتماعية، وفي هذه المعاني يقول الأستاذ مالك ابن نبي: "إن مجتمعا معينا لا يمكن أن يؤدي نشاطه المشترك دون أن توجد فيه شبكة العلاقات التي تؤلف بين عناصره المختلفة: النفسية

---

(١) رواه أحمد من حديث أبي هريرة، مسند المكثرين، رقم: ٨٥٩٥.

والزمنية. وإن كل علاقة هي في جوهرها قيمة ثقافية يمثلها القانون الأخلاقي والدستور الجمالي الخاص بالمجتمع. وكلما حدث إخلال بالقانون الخلقي في مجتمع معين حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع تاريخه"[١].

المطلب الثالث: مظهر الحضارة في الثقافة الإسلامية

يعد ذوق الجمال من المظاهر الراقية في الحياة الحضارية، وهو في الحقيقة انعكاس لروح الجماعة التي تشيد الحضارة.

ولذلك اهتم الإسلام بالجمال فقال عليه الصلاة والسلام: " إن الله جميل يحب الجمال"[٢].

لكن للإسلام نظرته وفلسفته التي تجعل من الجمال قيمة إيجابية للبناء الاجتماعي والرقي الإنساني. وأول ما ركز عليه الإسلام هو ارتباط قيمة الجمال بالأخلاق، فالجمال في الإسلام هو كل مسمع أو منظر أو شعور يرتقي بالنفس إلى الفضيلة ويجمل فيها صورة الخير، ويقابل الجمال القبح الذي يسف بالنفس البشرية، فلا تعد الثقافة الإسلامية أي عمل عار عن الأخلاق جمالا ولو ظهر في شكل فن مزخرف بالألوان، فللباطل زخرفه قولا وفعلا وما ذاك من الجمال في شيء.

لذلك فلا يعتبر الإسلام الجمالَ الذي يخاطب الغرائز نحو ما هو أدنى بل يلغيه، ويعتبر الجمال الذي يخاطب النفوس نحو ما هو أعلى ويدعمه.

---

(١) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص ٤٨-٥٣.

(٢) رواه مسلم: كتاب الإيمان، والترمذي: كتاب البر والصلة: وأحمد، مسند المكثرين: رقم ٣٦٠٠.

وأحكام الإسلام لا تكاد تخلو ـ كما لا يكاد خلق الله يخلو ـ من الجمال، ففي قراءة القرآن وترتيله جمال الصوت، وفي الطهارة قبل العبادة جمال البدن، ومنظر المسلمين في الصلاة جماعة منظر جميل فيه جمال النظام، وتجمّعهم في الحج يفيض جمالا وهو جمال التعاون، ونظامهم في الأكل والشرب والمشي و.. كما شرعه الإسلام جميل، وفي شريعة الله أمر المرأة بالتزين لزوجها، وأمر الزوج بمثل ذلك مراعاة للجمال، وأمر القرآن المسلمين بأخذ زينتهم عند كل مسجد، وأن لا يأكلوا إلا طيبا، ولا يقولوا إلا طيبا، ولا يؤذوا الناس لا بمنظرهم ولا برائحة أفواههم أو أجسادهم.

وتعلمنا عقيدتنا في الإيمان بالملائكة النظام الجميل في القيام صفا صفا، وأن لكل منهم مقام معلوم لا يتجاوزه، وأنهم لا يتكلمون إلا بإذن من الرحمان.

وطلب الإسلام من المسلمين أن يتأملوا في جمال الخلق، ووصف روعته في القرآن الكريم أيما وصف، وأضاف إلى قيمة المنفعة والتسخير فيه قيمة الجمال والزينة كما في قوله سبحانه: " والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون"(١)، وقوله: " أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها"(٢). وقوله: "يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد"(٣).

ويبدو أن الأفكار المغلوطة عن الإسلام في مسألة الجمال ناتجة عن مسألتين فرعيتين: مفهوم الجمال في المدنيات الوثنية أولا، ومفهوم الجمال لدى المسلمين المتأخرين ثانيا.

---

(١) النحل، ٥-٦.

(٢) ق، ٦.

(٣) الأعراف، ٢٩.

وأحسب أن المسالة الثانية هي ردة فعل عن المسألة الأولى، فالجمال عند الإغريق والرومان والماديين وعبدة الأوثان هو جمال الشهوات، وجمال اللذة الجسدية عموما والجنسية على الخصوص، وجمال الأصنام والتماثيل، وجمال الغريزة التي لا تعترف بالخطيئة ولا بقيم الأخلاق ولا باحترام الفطرة[١].

وحينما ورثت الحضارة الغربية هذه الرؤى الجمالية عن أصولها . الإغريقية والرومانية . وأصبحت هي الحضارة الفاعلة المنتشرة قيمها على الساحة التاريخية، بدأت هذه المعاني تثير ردة الفعل في العالم العربي والإسلامي . مع ظاهرتي الاستعمار القديم والجديد . واصطدمت هذه المعاني ببعض النصوص، مما تولد عنه ردة الفعل عنيفة لدى بعض المسلمين تجاه الجمال. يضاف إلى ذلك وضع الأمة الإسلامية حينما تعرضت للهجمة الاستعمارية والذي كان وضعا متخلفا حتى النخاع، أي حتى في جانب معرفتهم بدينهم وثقافتهم الإسلامية الأصيلة، فكانت الأمة الإسلامية مقطوعة عن فهم أصولها من منابعها نتيجة التقليد المذهبي، ومقطوعة الصلة بواقعها نتيجة التخلف الحضاري، مما جعل ردة الفعل تجاه الجمال سلبية عند طائفة من المسلمين.

ولعل هذا ما أوحى لكثير من الناس اليوم بأن الإسلام يتعارض مع قيم الجمال. وربما من مخلفات رد الفعل هذا أن بعض المسلمين ما يزال متجهما في نظرته للحياة، مديرا ظهره إلى ما في آيات الكون من الزينة والبهجة والجمال. وأحسب أن النظرة الجافة الخشنة ليست متعارضة مع التأنس والتحضر فحسب، بل مع الأخلاق كذلك. فالأخلاق نفسها، لها رونقها وجمالها، وأية صورة أجمل من مسح دموع اليتامى، وإطعام الجياع، وكفالة اللاجئين من الأعمال الحربية الوحشية والبربرية، تلك الأعمال التي جعلها

---

(١) ينظر: محمد عبد العزيز مرزوق، الإسلام والفنون الجميلة، ص ٧-٩

الإسلام من الأولويات. ولا نجد للأسف بين المنظمات الدولية التي تقوم بهذا العمل منظمات إسلامية، إلا قليلا، مع أن الضحايا في أكثر الأحيان من المسلمين.

ومن جهة التحليل النفسي والتوجيه التربوي، فإن الجمال هو الصورة الظاهرية لجمال النفس، فالنفس البشرية وعاء، والوعاء لا ينضح أو يرشح إلا بما فيه، لذلك يمكن القول إن النفوس التي لا تتذوق الجمال، وتعشق الفوضى والاضطراب والقبح ولا تهتم بالدقة والنظافة والنظام، هي نفوس مضطربة، وفوضوية ومظلمة من الداخل. أعني في كيانها ومكوناتها الفكرية والنفسية، إذ " لا يمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال الجميل أو الأفكار الكبيرة، فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالا أقبح، والمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة لا بد أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره وأعماله ومساعيه[١].

إن أهمية الجمال في حياة الأمة لا تقل عن أهمية أي مظهر آخر من مظاهر الحياة الحضارية، وهو الذي يرسم للرقعة الحضارية صورتها الجميلة أو القبيحة، المنظمة أو الفوضوية.

وبدلا من أن يخاصم قوم منا الجمال . الذي يعد فكرة صحيحة عن الحياة . لأن بعض الأمم أساءت فهمه والتعامل معه، علينا أن نرجع إلى أصول ثقافتنا الإسلامية الصحيحة . لمزيد من الفهم المعمق لفلسفة الجمال في الإسلام. ثم الاجتهاد في نقل هذه الفلسفة من التجريد إلى التجسيد، وهذه هي عقلية البناء، وتفعيل الحقيقة أو إحقاق الحق التي يدعو إلى تفعيلها الفكر الإسلامي الأصيل.

---

(١)مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص ٨١.

ومن هذه الفلسفة ننطلق نحو حياة فنية وأخلاقية جميلة بعد ذلك، تطبعها الفكرة الإسلامية في فن الصوت، وفن الصورة، وفن العمران، فضلا عن فنون الخط والزخرفة والعمارة[١] فالفن كما الأخلاق، كما العلم، كما الفكر، كلها أنظمة من نسيج الحضارة تتميز بالتكامل والانسجام، فالحياة الحضارية لا تقبل النشاز.

المطلب الرابع: وعاء الحضارة في الثقافة الإسلامية

إن الزمن في الثقافة الإسلامية مفهوم رحب وقيمة عليا شاملة لكل الوجود، فأول ما يدركه المسلم من الإسلام عقائده، ومن أهم عقائده الإيمان باليوم الآخر، فالوجود الدنيوي وجود مؤقت محدود بزمن، وهذا ما يعطي للزمن قيمته في الحياة.

إن هذا الزمن المهم المحدود لا ينتهي بمجرد انقضائه، بل هو فرصة لا تعطي إلا مرة واحدة، وابتلاء يعقبه خلود إما في النعيم أو في الجحيم، وحينئذ لا ينفع قول القائلين: " ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل" لأن القرآن الكريم يجيب عن ذلك بحسم: "أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير"[٢].

وإذا كان أمر الزمن بهذه الخطورة، فالمهم ليس أن يحيا الإنسان حياة لا اختيار له في دخولها ولا استشارة له في الخروج منها، ولكن المهم كيف يحيا؟ فالحياة الزمنية في الإسلام حياة نوعية والوجود الذي خلقه الله من النبات إلى الحيوان إلى البشر، وكذلك حركة الأفلاك، كل ذلك ينبئ بدقة الزمان وأهميته، ومعاني الحيوية والتجدد التي تنبعث منه فتبعث الحياة.

---

(١) الإسلام والفنون الجميلة، المرجع السابق، ص ١٠-١٥.

(٢) فاطر، ٣٧.

ومما ذكره القرآن الكريم في هذه المعاني قوله سبحانه: " قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا.. ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون"(١).

يقول د. صبحي الصالح معلقا على هذه الآيات: " لقد أدركني بعد تلاوة هذه الآيات إحساس غامر باتساع مفهوم الزمان ورحابه أبعاده المتتابعة أبدا، المتواصلة سرمدا المتجددة باستمرار، مع تعاقب الليل والنهار، وما وراء تعاقبهما من الأسرار التي تمنع الكون من البوار، وتنفذ الكائنات من الدمار، العرب يسمون الليل والنهار الجديدين، لأنهما كل يوم يتجددان، ولأن جدتهما المتكررة لا تبلى"(٢).

فتعاقب الليل والنهار معناه تجدد الحياة وتجدد الطاقة الحيوية، ومعناه الضياء بعد الظلام والنشاط بعد السكون والعمل بعد الراحة، وتصحيح الخطى بعد محاسبة النفس.

إن للنبات لإحساسا بالزمن فلقد اكتشف أحد علماء النبات في مطلع القرن الثامن عشر "ساعة نباتية من أغرب الساعات.. لقد تنبه هذا العالم النباتي.. إلى أحواض من الأزهار يوقت على انغلاقها حلول الليل وعلى تفتحها طلوع النهار، بل يوشك تنوعها واختلاف يقظتها ومنامها أن يحدد كل ساعة من ساعات الليل وكل ميقات من مواقيت النهار.."(٣).

وإن للحيوان الأعجم لقصة أعجب مع الزمان، فهذا حيوان يدعى السرطان عازف الكمان تظهر على بشرته ساعة حيوانية يتغير لونه بدقة مخبرا عن الزمان، حيث يبدأ بالصفرة الفاتحة في الصباح الباكر، ثم يميل حتى

---

(١) القصص، ٧٢.

(٢) صبحي الصالح، الإسلام ومستقبل الحضارة، ص ٧٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ٧٥

يصير بنيا عند الظهيرة ثم يتلون بلون العاج عند الغروب.. وهذا الطير يهتدي بالنجم ويدرك معنى الزمن الفلكي قبل البشر بملايين السنين [١]. " وفي أنفسكم أفلا تبصرون" [٢]

إن فكرة الزمان تحفر عميقا في كيان الإنسان حتى تصل إلى دقات القلب على ما قال شوقي:

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

إن الكون في الإسلام يبدو كساعة كبيرة تشعرنا بدقة الزمان وعظمته،" ومن طريق إدراكنا قيمة الزمن، ومن طريق تصورنا استمرار الزمن في التجدد، نستمر نحن أيضا في تجديد أنفسنا بالتذكر والتفكر والتعقل لنجعل غدنا أفضل من أمسنا "[٣].

أو ليس" ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد فاغتنم مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة "[٤]

إن الزمن نهر ممتد لا يسمح للمرء بأن يستحم فيه مرتين، وهل يملك الإنسان في الوجود غير عمره، وهل عمره إلا ساعات من الزمن.

"والتاريخ.. ما التاريخ، إنه فعل الإنسان في الزمن وفي أوقات اليقظة لا يقدر وقت أمة بثمن إنه يصبح جوهر الحياة الذي لا يقدر" [٥].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٧٧-٧٨

(٢) الذاريات، ٢١

(٣) صبحي الصالح، المرجع السابق، ص ٨٠.

(٤)ضعيف ذكره القرطبي في التذكرة وعزاه إلى أبي نعيم، ولعله من كلام الحسن البصري رضي الله عنه.

(٥) مالك بن نبى، شروط النهضة، ص١٤٥.

"إن الزمن قسمة عادلة من الله لجميع الأمم ولكن.. ينتهي الزمن إلى قيمة الحياة نفسها عند الأمم المتحضرة، وينتهي عند الأمم المتخلفة إلى العدم. وهذه هي مأساة الشعوب التي لا تدرك أن الحضارة هي عمل الأمة في التاريخ، وأن هذا العمل الذي هو محور الوجود الإنساني، أي أداء الواجب، هو الذي يمكن أن يعطي الزمن معناه، ومن ثم الحياة كلها"[١].

فالأمة تبدأ بالفعل تنسجم مع الوجود في إحساسه الفطري بالزمن، أي تبدأ في العودة إلى فطرتها، حينما تبدأ بالفعل في أداء رسالتها التي تشعرها بأن الواجبات أكثر من الأوقات.

إن أهمية استغلال الوقت لا تقل، بل تزيد أهمية عن أية قيمة أخرى. وما لم يتعلم أبناء أمة ما الاستفادة من الوقت ـ بفاعلية ـ فلن يكفيهم أبدا التشدق بأهمية الوقت.

المطلب الخامس: ميدان الحضارة في الثقافة الإسلامية

إن ميدان الحضارة هو الحياة الدنيا، وللثقافة الإسلامية في مفهوم الحياة الدنيا معنى رفيعا جدا. فليست الحياة الدنيا مبلغ العلم ولا أكبر الهم، وليست الحقيرة الوضيعة التي لا تستحق جهدا أو عناء. ويفهم هذا الفهم أو ذاك من أخذ النصوص مقطوعة عن مقاصدها. وأحد الفهمين أو كلاهما هو أحد ويلات الأمم والشعوب، فقد اتجه فريق من الناس إلى امتهانها، واتجه آخر إلى عبادتها، وكلاهما لا ينسجم مع طبيعة الأشياء، وفطرة الوجود، وقيم الإسلام الصحيحة.

والإسلام يعتبر الحياة دار ابتلاء وفرصة عمل، وهي جسر للآخرة لا ضدٌ لها، فلا تتم النجاة يوم القيامة بترك الدنيا واعتزالها، بل تتم باغتنامها في

([١]) مالك نب نبي، شروط النهضة، ص ١٤٧

المسابقة إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات. إن الدنيا لا تصبح خطرا إلا إذا تحولت إلى غاية في ذاتها وبذاتها. وهذا هو هدف المادية قصيرة الأمد. كما تصبح الدنيا خطرا إذا أصبحت شيئا لا قيمة له، أو ربما شرا يجب التعجيل بفنائه.

إن الحياة الدنيا دار ابتلاء، وهي وسيلة لا غير، ولكنها الوسيلة الوحيدة لتحقيق الذات وبلوغ بر النجاة.. وككل وسيلة، فإن الدنيا لا تحمل قيمة في ذاتها، بل القيمة الحقيقية للحياة هي ما يضّمنه الإنسان إياها.

والشعوب أمام فهم الحياة الدنيا على المستوى الحضاري ثلاثة أنواع، أحدها مفرّط، والآخر مفْرِط وبينهما وسطية الإسلام.

فالفلسفات التشاؤمية والغنوصية الروحانية مفرّطة في فرصة الحياة الدنيا، فهي لا تعتبر المادة سوى ظلال للروح، وهي لا تؤمن بوجودها على الحقيقة فضلا عن أن تحرك من مادة الأرض شيئا، وهذا فهم يمقته الإسلام ويرفضه العقل وتأباه فطرة إنسان سليم.

والفلسفات المادية تقدس وتؤلّه حبة التراب وقطرة الماء وشرارة النار وذرة الهواء، ولا تعرف غيرها، لذلك نجد الماديين وقد خدموا الدنيا كما لم يخدمها أحد قبلهم، ومع ذلك لم تخدمهم الدنيا بشيء يقدر بمقدار ما أخذت منهم، وخلطت نفعها لهم بإعناتها إياهم بمزيد من الفضائح في الأعراض ومزيد من السفك في الدماء، ومزيد من الأمراض النفسية إلى درجة الانتحار، والجسدية إلى درجة فقدان المناعة المكتسبة.

وهؤلاء الماديين نظروا إلى الدنيا نظرة خالد فيها، وقصروا عقولهم وهمهم عليها، وجعلوها إلها فجهلتهم لها عبيدا. ولا شك أن ما يقرره الغربيون اليوم من أنهم أصبحوا في خدمة الحضارة بدل أن تصبح الحضارة في خدمتهم

كون الإنسان أصبح تعيسا، يحتاج لمزيد من العلوم التي تخدم سعادته الروحية والعقلية، له هذا المعنى كما أدرك ذلك الأستاذ ألكسيس كاريل[١] .

أما الإسلام الذي جسدته حضارة الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه، فما يزال فكرا صحيحا خالدا، ينتظر من يعيد بعث فاعليته. فهو لا يرفض خدمة الأرض ولا اختراق أجواء السماء، ويجعل بدل ذلك قيمة الإنسان في قيمة ما يعلم وقيمة ما يعمل وقيمة ما يحسن في هذه الحياة، لا يحتقر الإسلام الدنيا بفهم الغنوصية السقيم، ولا يحد أفهام أتباعه بحدود الدنيا ويقصر همهم عليها كما يفعل الماديون.

إن فلسفة الإنسان المؤمن تجاه الدنيا أن يخوض غمارها بعقل أوسع من حدودها، وهمة أرفع من شأنها، وعينين مشرئبتين باستمرار نحو الأفق تتطلعان إلى الخلود، إلى ما بعد المادة وأسرارها، إلى مرضاة الله رب العالمين، وبذلك وبه فقط يتم التعمير والبناء، ولا يتم التغرير والعماء.

المطلب السادس: غاية الحضارة في الثقافة الإسلامية

في الثقافة الإسلامية تنصهر كافة الموجودات في نسق واحد لتتجه وجهة مشتركة، وسعادة الإنسان ليست شيئا منفصلا عن سعادة المجتمع الذي يعيش فيه، والرسالة التي تستحق التضحية ـ إنسانيا هي تلك التي تحمل السعادة لكافة الناس وليست التي تستثنى بعضهم.

لذلك فالأفكار العرقية والعنصرية ليست أفكارا حضارية، والمبادئ التي تميز بين بنى البشر ليست محققة للقيم الإنسانية الراقية، بل إن النتيجة المنطقية للفكرين معا هي الاسترقاق والاستعمار.

---

(١) ينظر ألكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، ص ٥٧

وفي ثقافتنا الإسلامية، كل الناس لآدم وآدم من تراب، وابن آدم مكرم لمجرد أنه ابن آدم، ولا معنى لأصل العرق أو لون البشرة.

إن قيمة الإنسان الحقيقة هي فيما يقدم من النفع للآخرين، فالخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله. وليست الغاية من الحضارة في الإسلام تعمير الأرض، ولكنها الرقي بالإنسان روحا وجسدا، فردا وأمة، ذكر وأنثى، ولا يرقى بالإنسان بهذا المعنى إلا الإسلام. لهذا المعنى رأى بعض المفكرين أن الإسلام هو الحضارة، وهذا صحيح على مستوى التوافق بين غاية التنزيل وغاية الإنسان في الحياة، لكن لابد للتنزيل من تنزيل فعلي على أرض الواقع ليصبح معناه الحضارة بحق.

إن هذا الملحظ هو ما يؤدي بنا إلى القول بأن الفكرة الصحيحة وحدها لا تكفي – مع ضرورتها – لتنتج نمطا حضاريا ما، وتبعة التنزيل تتوقف على الإنسان نفسه، الإنسان الخليفة في جهاده المستمر في فهم الوحي من جهة، وفي تطبيقه من جهة ثانية، ولذلك كان الإنسان هو وسيلة الحضارة، ولما كانت الغاية من الحضارة تحقيق سعادة الإنسان نفسه بات الإنسان كذلك هو غاية للحضارة.

وسعادة البشر لا تكمن في السعادة المادية وحدها، فإن القلوب إذا استوحشت لا تجد طعما فيما تملك مهما ملكت، كما لا تكمن السعادة في التلذذ بملذات الدنيا، فالإنسان العاقل يسأل دائما ثم ماذا؟ إن السعادة الدنيوية متوقفة على الشعور بالطمأنينة لما بعد الموت، وهذا ما لا تقدر أن توفره للإنسان ثقافة أخرى غير الثقافة الإسلامية، التي تغطي رؤيتها الشاملة جوانب الحياة المادية والمعنوية، الدنيوية والأخروية. وبذلك يتحرك الإنسان لبناء التاريخ وبعث الحضارة وهو مطمئن البال قوي الإرادة، متوقد الروح.

خلاصة: من خلال عرض حقائق الثقافة الإسلامية المتعلقة بأسس البعث الحضاري، تبين لنا أن ثقافة الإسلام تحمل " الإمكان الحضاري" على مستوى" الفكرة الدينية الإسلامية"، وأن التزام المسلمين بدينهم وتفعيلهم هذه المعاني في حياتهم كفيل بأن يبعث حياتهم الحضارية المنشودة، ولذلك ينتقل البحث إلى مستوى آخر، أعني من مستوى الفهم إلى مستوى التنزيل، ومن مستوى الوحي والعقل إلى مستوى الواقع والتاريخ، فكيف يتحول فهمنا للثقافة الإسلامية الذي عرفنا صحة أسسه ومضامينه الحضارية، وبينا شموله لعناصر التحضر كلها، إلى واقع نابض بالحياة؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في المبحث الآتي.

المبحث الثاني

عوامل تفعيل أسس البعث الحضاري في الثقافة الإسلامية

كان الموضوع في المبحث السابق عن العناصر التي تجعل من الثقافة الإسلامية حاضنة تحمل "كمونا حضاريا"، وقد تبين لنا أن الإسلام بثقافته الواسعة المنضبطة المستمدة من الوحي، هو وحده الذي لا ينضب معين كمونه الخالي من التناقضات والشامل لمتطلبات الحياة، والقابل للانبعاث من جديد بعد السبات، مهما تغير الحال وتجددت التحديات.

إن الأفكار الصحيحة التي تحملها الثقافة الإسلامية عن حقيقة الوجود هي نعمة إلهية ليس للمسلمين وحدهم بل للبشرية جمعاء، تمثل بالنسبة للأمة الإسلامية الأصالة والمرجعية التي ينبغي أن تعود إليها باستمرار لتصحيح مسار الحياة الحضارية داخل الرقعة الإسلامية، وعلى الصعيد العالمي كذلك. غير أن هذه الأصالة تحتاج في تفعليها إلى عناصر أساسية وهذا ما سنحاول دراسته في المطالب الآتية.

المطلب الأول :عوامل تفعيل الثقافة الإسلامية وتكاملها

لا ريب بأن عوامل التفعيل تتعلق أولا وقبل كل شيء بالجهد الذي يبذله الإنسان كل يوم من أجل أن تتحول القيم التي يؤمن بها إلى واقع يعيشه الناس، أي لا بد أن يباشر هو بناء حضارته " وإنها لشرعة السماء غير نفسك تغير التاريخ"[١] من هنا فإن الاجتهاد العلمي " في فهم النص"، والاجتهاد العملي " في التنزيل وتحقيق المناط" هو الوسيلة الحيوية التي هدفها بسط صورة الإسلام ـ صورة الحقيقة المجردة ـ بشكل مرحلي ومتدرج، وفي حدود

(١) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص، ٣٥.

الإمكان، يراعي متطلبات المكان وظروف الزمان وأولويات المرحلة التاريخية، ويؤكد مقاصد الشريعة، ولا يهدر حقائق الرسالة السماوية الخالدة [١]..

إن الاجتهاد العلمي والعملي هو وسيلة نقل الأفكار والمبادئ من مستوى المطلق الذي هو الوحي، إلى مستوى الزمني الذي هو فهم الإنساني وفعله، وتلك هي وظيفة الاجتهاد بمعناه العام الذي لا يخلوا منه مكلف، وكما قال الأستاذ مالك بن نبي " الحضارة ليست شيئا يأتي به سائح في حقيبة لبلد متخلف، المسلم هو الذي يذهب إلى الحضارة إلى مصادرها البعيدة، وقبل كل شيء إلى مصادرها الأقرب من أصالته.. والحضارة هي نتيجة الجهد الذي يبذله كل يوم الشعب الذي يريد التحضر"[٢]

إن الأفكار الصحيحة ترسم معالم الحياة التي ترفع قيمة الإنسان وتجعله متوازنا مع الوجود، ثم توكل إليه مهمة تجاوز الصعوبات، بالحكمة والتفكر، وبالصبر والمصابرة، وبالجهاد بأوسع معانيه بذلا الوسع من أجل تحويل القيم إلى واقع.

وبين الاجتهاد والجهاد تقع محنة العالم الإسلامي اليوم، فكلاهما يتوقف على الآخر، إذ يمثل الاجتهاد الأفكار الإنسانية المستنبطة من الأصل الرباني . الكتاب والسنة . والمكون الأساس لرسالة المسلم المعاصر، والتي تضمن للجهاد . والذي هو دور الإنسان المسلم . أن يبقى على مساره الصحيح ويحقق أهدافه، ويمثلُ الجهاد الصورةَ الواعية لاجتهاد المسلمين في كل عصر من عصور حياتهم.

---

(١)را: في مفهوم التنزيل والاجتهاد فيه د. عمر عبد المجيد النجا، فقه التدين فهما وتنزيلا، وخلافة الإنسان بين الوحي العقل، ص ١٠٧-١٢٣، للكاتب نفسه.

(٢)مالك بن نبي، في مهب المعركة، ص ١٢٠.

من هذه الزاوية بالذات، عندما يكون الاجتهاد عقيما يتوقف الجهاد، وعندما يكون الاجتهاد سقيما يكون الجهاد مدمرا، وعندما يكون الاجتهاد كلاما حالما، يكون الجهاد شعارا فارغا[١].

فالأفكار ـ الاجتهاد ـ تصاب كما يصاب الكائن الحي، بالعقم أحيانا، والسقم أحيانا، وبالموت أحيانا، هذا إذا لم تكن سامة وقاتلة، وفيما يلي أحاول دراسة الشروط التي تجعل من الاجتهاد مستمرا، وتلك التي تجعل منه فاعلا، والأخرى التي تجنبه أن يكون قاتلا ومدمرا.

فهما عاملان لتفعيل الأفكار، كلاهما مرتبط بمستوى وعي الأمة وتضحياتها في سبيل ما وعت، وهما: الاجتهاد بمفهوميه: العلمي الذي يمارسه العلماء، والعام الذي لا يخلوا منه مكلف، والجهاد الذي يعني بذل كل جهد وطرق كل سبيل من أجل تحويل أسس البعث الحضاري إلى واقع تاريخي. وهما عاملان متكاملان، فجماهير المسلمين لا تبني الحضارة بالسير على غير هدى من بيان العلماء وآراء الخبراء السديدة، والعلماء قد يظهر بعضهم في مراحل العزوف الحضاري، فيملأ علمه الكتب، وتخلوا منه الحياة، لأن الشعوب في مراحل معينة من التاريخ قد تستقيل من الحياة، إما بضغط من الخارج أو بعد انتكاسات من الداخل، فتكون بمثابة السيارة التي نفد منها الوقود[٢]

المطلب الثاني: الاجتهاد لتفعيل أسس البعث الحضاري بين الإغلاق والانغلاق

يثور سؤال كلما ذكر الاجتهاد: لماذا توقف الاجتهاد وكيف يستمر؟ سؤال شغل كافة المصلحين وحركات النهضة في العالم الإسلامي، وحاول

---

(١)ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، صحة الأفكار وصلاحيتها ص١٠٢ وما بعدها.

(٢)ينظر: سعيد جودت: حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص ٩ –١٠.

الجميع الإجابة عنه من زوايا مختلفة، والسؤال كما هو واضح من صيغة طرحه مكوّن من جزأين: التساؤل عن: "أسباب توقف الاجتهاد" و " عن شروط إعادة بعثه". فهل في الإسلام ما يقضي بأن يتوقف الاجتهاد؟

إن جميع الحركات الإصلاحية، وكل المفكرين الإسلاميين من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار مجمعون ومتفقون على أن سبب توقف الاجتهاد لا يمكن أن يرجع بحال إلى " النص الإسلامي"، أي القرآن الكريم أو السنة النبوية المطهرة، ويمكن لكل من توفر لديه اطلاع يسير وشيء من الإنصاف أن يشهد بذلك، فالقرآن والسنة يفتحان آفاق العقل البشري على النظر والفكر والتدبر، ويضمنان الأجر لكل مجتهد بذل وسعه فيما يحسن ولم يقصر.

وفضلا عن آيات القرآن الكثير، فأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام قاطعة في هذا الشأن، كما في قوله عليه السلام: "من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد"[١]، وقوله: " يبعث الله على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها"[٢].

وما لم تُعرف الأسباب الحقيقية لتوقف الاجتهاد في هذه الأمة، وإصابة العقل المسلم بالكسل الذهني، أي توقف سيل الأفكار المحركة للتاريخ، فلن تتحول أسس البعث الحضاري في الثقافة الإسلامية إلى واقع، وستبقى الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد مجرد دعوى فارغة لا شيء وراءها.

ويرجع كثير من الباحثين والمفكرين أسباب توقف الاجتهاد في الفكر الإسلامي إلى أسباب خارجية، أي أسباب سياسية، وهؤلاء يقولون بأن باب الاجتهاد قد أغلق عنوة ولابد من إعادة فتحه، ويستشهدون من التاريخ بالحكم

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الملاحم.

الاستبدادي، أو الملك العاض وما مارسه من قهر على أئمة الإسلام بعد انقضاء حكم الخلافة الراشدة، وعندما أصبحت صدور كثير من ولاة أمور المسلمين تضيق بسماع كلمة الحق، أو ما نجم عن الاستبداد الحديث من محن ونكبات، كالتغيير العنيف الذي أحدثه أتاتورك بعد سقوط السلطنة التركية الإسلامية، وربما قبل ذلك بقرون عديدة، حين اضطهد علماء الأمة وفقهاؤها وعلى رأسهم الأئمة الأربعة للفقه الإسلامي[١]. وكثيرا ما يضرب المثل بمحنة ابن حمبل أو نكبة ابن رشد[٢]، أو حتى في مرحلة لاحقة حين قضت سياسة الخلافة العثمانية بالاقتصار على المذهب الحنفي قبل أن تنهار آخر قلاع الحكم الإسلامي.

كما يرجع فريق من الباحثين سبب توقف الاجتهاد إلى عناصر داخلية في ذات المنظومة الفكرية الإسلامية، أي أن الاجتهاد لم يغلق بابه فليس للاجتهاد باب حتى يغلق، ولكنه انغلق طبيعيا لأن نسق الأفكار الذي كان يمده لم يعد ـ لأسباب تاريخية وربما فكرية ومنهجية أيضا ـ قادرا على الإمداد، وما لم تتغير آليات التفكير في نظر هؤلاء فإن الاجتهاد لن يفتح، لذلك اتجهوا إلى نقد الثقافة العربية الإسلامية من الداخل لإحداث قطيعة أبستمولوجية معها، واعتبروا القياس أصلا للفكر الإسلامي، ثم اعتبروه عقيما، لأن المسائل المعاصرة المستجدة على العالم الإسلامي مسائل مختلفة نوعيا تحتاج إلى اجتهاد مختلف نوعيا أيضا، فهي قضايا من قبيل الأمهات القائمة بنفسها وقياسها على ما سبق خطأ وتضييق لأفق الفكر والاجتهاد ينحو به إلى

---

(١) عبد الحميد أحمد أبو السليمان، أزمة العقل المسلم، دار الهدى عين مليلة الجزائر، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص ٤٠.

(٢)محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، ص ٦٨، ص ١٣١.

التوقف لا محالة، ويزعم هذا الفريق أن الإمام الشاطبي في الموافقات حاول أن يخرج العقل المسلم من ضيق القياس الأصولي إلى سعة المقاصد الشرعية[١].

ولا يسع الباحث المسلم المطلع على روح الثقافة الإسلامية إلا أن يوافق على اصطلاح " انغلاق باب الاجتهاد" وليس إغلاقه، ذلك أنه ليس للاجتهاد باب حتى يغلقه من شاء كيف شاء.

والبحث الاجتماعي والثقافي والحضاري يكشف على مدار التاريخ أن أية قوة خارجية مهما بلغ بطشها لا يمكن أبدا أن توقف سيل الإبداع والاجتهاد لدى أمة من الأمم، ما لم تتسلل الأمراض الاجتماعية إلى داخل الأمة نفسها وتفقد إنسانها الإرادة والعقل، فتنطلق غرائزه من عقالها[٢]. لذلك يمكن القول ـ ودون المصادرة على تأثير كثير من الأسباب السياسية تأثيرا سلبيا على الاجتهاد ـ إن الاستبداد السياسي نتيجة وليس سببا، إنه عامل إضافي وليس عاملا أساسيا، فعندما تتراجع عوامل البعث الحضاري ويصيب المجتمعات الخمول يظهر في الأمة الاستبداد السياسي ويحكم قبضته على العقول والقلوب، ولا يبقى من علماء الأمة من يكون ولاؤه للحق إلا قليلا، وتكثر النياشين لمن يكون بلاط الحاكم قبلته.

وهذا لا يعني أبدا أنني أوافق الدكتور الجابري على اتهامه العقل العربي المسلم بالقياسية الضيقة، وافتراضه أن تتبوأ المصلحة بمفهومها

---

(١) نحا في هذا الاتجاه الدكتور المغربي محمد عابد الجابري، في رباعيته الناقدة للعقل العربي، خاصة كتاباه: (تكوين العقل العربي، بنية العقل العربي)، وأكده في كتابه وجهة نظر نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط٢، بيروت، نوفمبر، ١٩٩٤م، را: مثلا، ص٥٣.

(٢) ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، ص ٥٣ وما بعدها.

المطلق، بطريقة صريحة أو مبطنة مآلها استبعاد النصوص أو تهميشها، مكانة القياس الأصولي أو العقدي، ذلك لأن الثقافة الإسلامية تزخر بالمنهج الاستقرائي إضافة إلى المنهج الاستنباطي القياسي، وما اقترحه الدكتور الجابري من المقاصد الشرعية لم يأت به من عنده، بل المقاصد مثل القياس كلها من صلب الثقافة الإسلامية الأصولية والتشريعية، ولكن لكل منهج مكانه ودوره ومهمته وفائدته لذلك لا نرى صواب ما ذهب إليه.

لكن ينبغي التأكيد كذلك في ضوء البعث الحضاري على إعادة ترتيب الأولويات والاهتمام الكبير بمقاصد الشريعة وضوابط المصلحة دون إهمال النص الجزئي.

المطلب الثالث

الاجتهاد لتفعيل أسس البعث الحضاري بين الفاعلية والعقم والتدمير

لا يمكن القول: إن الاجتهاد قد توقف في العالم الإسلامي بصفة مطلقة، فلقد كانت تهب على العالم الإسلامي رياح التغيير والإصلاح كلما ظهر أن الأمة قد استسلمت للنوم العميق، وللغفلة التي تضع مصيرها في يد أعدائها، ولكنه أيضا كان في أكثر الأحيان هذا الاجتهاد إما ميتا أو عقيما، إن لم أقل كابحا لحركة التقدم وقاتلا[1].

فليس المطلوب هو الاجتهاد لمجرد الاجتهاد، فالاجتهاد الذي لا يدرك أسباب توقفه ومبررات إعادة بعثه، ولا يدرك منطلقاته ووظائفه لا يمكنه أن يكون مجديا فعالا.

([1])عن الأفكار الميتة والمميتة وانتقام الأفكار ينظر الأستاذ مالك بن نبي، كتاب: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص٦٠-٦٦

وحينما يتأمل الباحث وضع الثقافة العربية الإسلامية والتيارات الفكرية وكذا الحركات الإصلاحية التي مرت بها يدرك تماما أن ثمة انشقاقا يمثل تعارضا صريحا بين دعاة الأصالة من جهة، ودعاة التغريب من جهة ثانية. وكلاهما فيه تطرف فكري ظاهر، أحدهما يريد أن ينسلخ من جلده، ويقصي أصالته من أجل المعاصرة، والآخر يريد أن يجمد على كل قديم، كأنما يريد أن يوقف حركة الافلاك وسير التاريخ، وذلك صراع حدي ضاعت فيه الوسطية الإسلامية الجامعة، والمسألة برمتها ترجع إما لسوء فهم للأصالة أو سوء فهم للمعاصر.

والسؤال الملح على العالم الإسلامي الذي يريد الخروج من التخلف إلى الريادة الحضارية ومن هامش التاريخ إلى مركزه، هو: كيف يكون اجتهادنا بناء وفاعلا، غير عقيم أولا ولا مدمر ثانيا؟

والسؤال يبقى مستعصيا على الحل ما لم يدرك تيار الأصالة أن الأصالة لا تعني الماضي، وأن الإسلام لا يعني التاريخ، وما لم يبق هذا التيار مصرا على الاجتهاد المظهري الحرفي، بعيدا عن إدراك الحاجات الحقيقة للأمة الإسلامية في مرحلتها التاريخية الراهنة و"يلغي بعشوائية ملفتة للنظر الأبعاد الزمانية والمكانية لكيان الأمة"[١]، وما بقي يتعلل بالتحديات الخارجية " فليس عذرا كافيا كل ما يمكن أن يقال عن العقبات التي تحول دون إحداث الآثار المطلوبة لفاعليات حل التقليد للواقع التاريخي لأن المطلوب من أي حل صحيح هو أن يأخذ في حسبانه أمر تلك العقبات، وأن يتصدى لها بالحل لأنها في ذاتها جزء لا ينفصم عن المشكلة المطلوب حلها"[٢].

---

(١) أزمة العقل المسلم، مرجع سابق، ص٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص٣٠.

كما أن السؤال ذاته يبقى مستعصيا على الحل ما بقي تيار الحداثة والمعاصرة تيارا تغريبيا يلغي الذات العربية الإسلامية ويهمل تراثها ويحارب ثقافتها وآليات تفكيرها المنهجية، ويتبنى في الوقت عينه المنهجية الغربية والاستشراقية، ويسلم بأحكامها دون نقد ودون أن يخبر حقيقتها، ومن أهم عوامل ذوبان هذا التيار الحديث في الغرب الكاسح فكرا وصناعة أنه يحاور دون أن يكون ذاتا، فذاته الثقافية قد أعدمها حين بدأ في محاورة الغرب، ويقلد من حيث يرفض التقليد، فيذم الأصالة لتقليدها الأجداد ولا يجد حرجا في تقليد فلاسفة الغرب ومفكريه، ويدمر الأمة محققا أهداف أعدائها . عن حسن نية أو سوء نية، ولقد حقق الغرب مع وجود هذه النخب مآربه في العالم الإسلامي دون عناء كبير، وباتت الأيديولوجيات المستوردة تكبح التقدم وتدمر عوامل التحصين، ولا تخدم الأمة بشيء يذكر.

إن الاجتهاد لن يكون فاعلا ما لم ينطلق من الذات نحو معالجة الحاجات الحقيقة للأمة الإسلامية، وهذه الرسالة تتطلب " التفكير في المنطلقات الكلية والشمولية، ومتابعة حركات التكتل البشرية وكثافتها وتعاملاتها الجماعية.. أي الوعي الكامل والتركيز التام على مقاصد الشريعة وكلياتها وقيمها ومبادئها الأساسية، وجعلها منطلقا للفكر الاجتماعي الإسلامي في هذا العصر"[1].

والاجتهاد لن يكون فاعلا ما لم يدرك حاجته الأساسية من الحضارة المعاصرة فيأخذ منها ما يخدمه لا ما يخدمها، فلابد من النظر إلى التعارض الموجود على الساحة الثقافية العربية بين تياري الأصالة والحداثة على أنه منطلق الاجتهاد ومبرره. فالتناقض الذي يشق الوعي العربي الإسلامي يشكل في الوقت ذاته توتره ومحركه ودافعه نحو التقدم. وهو التعبير الصحيح

([1]) المرجع نفسه، ص٣٤.

والصريح عن والجود الفعلي لأزمة وضرورة الاجتهاد لتجاوزها، فلا ينبغي أن يغيب عن ضمير الباحث المسلم وهو يجتهد في أية قضية تتعلق بأمته أنه مسلم، وأن للإسلام ثقافته الأصيلة، ومنطلقاته الأساسية في التفكير، وعناصره الذاتية في الثقافة. كما لا ينبغي أن يغيب عنه أيضا أنه يتطلع باستمرار إلى التقدم والتفوق في عالم له مقاييسه الخاصة بالفاعلية، ونسيان أي من طرفي هذه المعادلة يوقع في أحد التيارين، أي أنه يوقعنا في نوع من الاجتهاد يكون إما عقيما لا علاقة له بالواقع، أو قاتلا يحطم الحقيقة الموضوعية التي تقوم عليها أصالة الأمة، ويسير في اتجاه معاكس لمسار حركة سنن النهوض.

إن من أكبر أسباب العقم والتدمير عدم التفرقة بين صحة الأفكار وفاعليتها، وفي هذا يقول ابن نبي ـ رحمه الله ـ: " فكرة أصيلة لا يعني ذلك فعاليتها الدائمة، وفكرة فعالة ليست بالضرورة صحيحة، والخلط بين هذين الوجهين يؤدي إلى أحكام خاطئة، تلحق أشد الضرر في تاريخ الأمم حينما يصبح هذا الخلط في أيدي المتخصصين في الصراع الفكري وسيلة لاغتصاب الضمائر "[١].

ومن أسباب ذلك أيضا أن " البحث العربي في الثقافة تمحور حول دور الثقافة في النهضة لا على وظيفتها الاجتماعية "[٢].

إن الاجتهاد الفاعل المطلوب اليوم هو اجتهاد وظيفي قصد بعث الحضارة وتحقيق النهضة، منطلقه الأصالة ومصبه صناعة التاريخ، أي أنه ينطلق من الفكرة نحو الواقع، وبوصلته تتجه نحو المستقبل، ذلك أن الواقع

([١]) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة ود أحمد شعبو دار الفكر الجزائر/ دمشق، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص ١٢٠.

([٢]) برهان غليون، اغتيال العقل، سلسلة موفم صاد، الجزائر، ١٩٩٠م، ص٢٠.

هو الدافع على التفكير، ومشكلاته هي التحديات الثقافية التي ينبغي حلها وتجاوزها، وهو أحد العناصر المكونة للفكرة الفاعلة.

إن" الخروج من شقاق الوعي" بين الأصالة والحضارة " هو الخطوة الأولى والضرورية على طريق الخروج من شقاق الواقع وفوضاه، أو على الأقل من التخبط الأعمى في هذا الواقع"[١].

وهذا الخروج يكون ممكنا كلما زادت حدة النقد الذاتي وزاد عمقه في كل تيار، وأدرك دعاة الأصالة أن في التراث عناصر تموت ويجب استبدالها، وأدرك دعاة المعاصرة أو التغريب على الأصح أن في الحضارة المعاصرة عناصر سامة وقاتلة يجب تلافيها، وتكون غاية الإصلاح والحضارة أقرب كلما اكتشفت هذه العناصر الميتة فاستبدلت بما يحيي الناس، وكلما انتشلت هذه العناصر المميتة وطرحت جانبا فإن الله تعالى قد دعانا لما يحيينا "يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم" فلا بد من أفكار حية محيية بدل الاجتهادات الموغلة في التاريخ أو تلك القادمة من المستقبل، وكأن قدر الأمة أن تبقى دائما مسافرة إما في الزمان أو في المكان، ولا تلتفت إلى الواقع البئيس الذي يبدأ واجبها من تغييره، فكرا وعملا.

ورأي الباحث أن في العالم الإسلامي اليوم . مع نضج المجتمعات الإسلامية وسيرها الحثيث نحو الترشيد . تيار يتزايد نموه باستمرار يحاول فعلا خدمة الوظيفة الاجتماعية من منطلق الأصالة وبفعالية أيضا، وإن يك صوته ما يزال خافتا، وأنا أعتبر هذا البحث محاولة أو لبنة في جداره الذي ينبغي أن يكون ضخما، وأقصد به تيار الوسطية الإسلامية الجامعة، أو تيار الأصالة الإسلامية المعاصرة كما أسماه الدكتور أحمد أبو السليمان، أو تيار تفعيل

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٩.

الحقيقة كما شرح ذلك بدقة وعمق الأستاذ مالك بن نبي، وكثير من علماء الأمة المخلصون لدينهم، الواعون بمتطلبات عصرهم في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ أمتنا.

فتكون أهم عناصر تفعيل البعث الحضاري وسننه وشروطه ملخصة على مستوى تفعيل عالم الأفكار وفضاء الاجتهاد، وبذل الجهد جهادا في سبيل نهضة الأمة، في الواقعية في تحديد المسائل والحاجات والاستفهامات والمتطلبات وإدراك التحديات، والأصالة في مصادر المعرفة والاعتقاد وشروط فهم التنزيل، حتى يكون هذا الاجتهاد وذاك الجهاد من أهله وفي محله كذلك.

ومثل هذا في الأهمية الاهتمام بإدراك سنن الشمول وكلية التناول، أي في الإطار الحضاري، حتى تكون كل الاجتهادات الجزئية خادمة لبعضها، وتصب في معين الرؤية الحضارية الشاملة المتكاملة، ولا تكون اجتهادات ذرية[1] يبطل بعضها بعضا، وينقض أولها آخرها وآخرها أولها.

ومثل هذا في الأهمية أيضا، إعادة ترتيب الأولويات على مستوى المنهج في الفكر والبحث الأصولي، والعقدي والقيمي، فتأخذ المقاصد الجزئية والكلية ويأخذ مفهوم المصلحة وضوابطها واستعمالاتها حظهما من البحث والتفعيل لأنه الإطار الواسع القادر على استيعاب قضايا العصر، ويتجه الفكر العقدي إلى بناء المؤمن الصادق التقي، وينظر في آثار الدرس العقدي على الحركة الاجتماعية في الأمة، لا أن يتحول الدرس العقدي إلى جدل عقيم أو إعادة تنظيم للقضايا الكلامية، وإعطاء كل قضية سواء أصولية أو عقدية أو خلقية وزنها الذي يليق بها، كي لا يطغى وزن الفروع على الأصول، والمهم على الأهم، فتكون الثقافة الإسلامية برمتها الحاضنة الباعثة على التنمية

([1])مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص٥٣ وما بعدها

المجتمعية والبناء الحضاري، فالثقافة التي لا تبني الحضارة تتحول سريعا إلى تراث يطالعه الناس في الكتب للتسلية، كما يفعل قراء ألف ليلة وليلة.

خلاصة: الخلاصة أنه لا بد من الاجتهاد الصحيح والجهاد الحي، لتفعيل أسس البعث الحضاري التي تكتنزها ثقافتنا الإسلامية، ومن أجل أن تتوفر شروط الصحة في الاجتهاد والصلاحية في الجهد والجهاد، لا بد من الواقعية في السؤال، والأصالة في جواب، والشمولية والكلية الحضارية في التناول، والأولوية في الاهتمام والتفاعل.

الخاتمة:

نتائج البحث ووصاياه

أولا: النتائج:

١- توصل الباحث بفضل الله إلى حصر أسس البعث الحضاري، وهي: العلم والمعرفة، والأخلاق والقيم، والجمال والنظام، وحسن التعامل مع فرصة الحياة، وقيمة الزمن، وكسب السعادة والطمأنينة والسلام، وهذه الأسس هي التي ينبثق عنها العمران الذ يريده الإسلام، ومحور ذلك كله الإنسان حين يكون طليعيا في التاريخ.

٢- كما توصل الباحث إلى أن الثقافة الإسلامية هي المرشح الوحيد الذي يمكنه بعث الأمة من جديد بما فيها من كمون حضاري غني، وعناصر معرفية صحيحة وموافقة للفطرة تتعلق بالأسس الباعثة للحياة الحضارية.

٣- وأخيرا توصل الباحث إلى عوامل تفعيل الكمون الحضاري الذي تكتنزه الثقافة الإسلامية، من ضرورة بعث الاجتهاد الفاعل الصحيح، والجهاد الفاعل الصالح لعمارة الأرض، وذلك بالتزام شروط كل منهما من الواقعية والأصالة والشمول والكلية ومراعاة الأولويات، والبعد عما من شأنه أن يقتل إرادة الأمة في سعيها نحو البناء الحضاري، من مثل التقليد الأعمى، أو الاجتهاد الهدام القاتل أو العقيم الميت، الذي لا يحيي قلبا ولا يبعث روحا.

ثانيا: التوصيات

١- على ضوء البحث ونتائجه يوصي الباحث بتعميق البحث وتوسيعه في مجال الأسس الباعثة للحضارة في ثقافتنا الإسلامية، وتوجيه طلبة

الدراسات العليا في تخصص الثقافة الإسلامية لإنجاز أطروحات في دراسة مثل هذه الأسس لأهميتها.

٢- كما يوصي الباحث بإنجاز بحوث علمية في أسس البعث الحضاري وتفعيلها عند كبار المصلحين والمفكرين ورجال الثقافة في عالمنا العربي والإسلامي، وعلى سبيل المثال: أسس البعث الحضاري في الثقافة الإسلامية عند السيد محمد رشيد رضا، سواء من خلال تفسير المنار أو مطلقا، وهكذا عند الشيخ محمد الغزالي أو عند شخصيات من التراث كأبي حامد الغزالي أو ابن تيمية أو غيرهما.

٣- ويوصي الباحث أقسام الثقافة الإسلامية أن تخصص مادة مستقلة لطلبة التخصص في مرحلة البكالريوس يدرسون فيها أسس البعث الحضاري في الثقافة الإسلامية.

ثَبْت المصادر والمراجع باللغة العربيّة:

أحمد السيد علي رمضان، العلم والدين بين الإسلام والفكر الغربي دراسة مقارنة، مكتبة جزيرة الورد، المنصورة، مصر، ٢٠١٦م

أبو السليمان، عبد الحميد أحمد، أزمة العقل المسلم، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، الطبعة الثانية،١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

ابن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، دار الفكر الجزائر، دار الفكر دمشق، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

ابن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، دار الفكر الجزائر، دار الفكر دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

ابن نبي، مالك، ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر الجزائر، دار الفكر دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

ابن نبي، مالك، مشكلة الثقافة، دار الفكر دمشق، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م.

ابن نبي، مالك، في مهب المعركة، دار الفكر، الطبعة الرابعة، ١٩٨٨م

اشفيتزر، ألبيرت، فلسفة الحضارة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

الجابري، محمد عابد، وجهة نظر نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٩٤م.

الجابري، محمد عابد، المثقفون في الحضارة العربية محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٥م

جودت، سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم، الطبعة الأولى في الجزائر، ١٩٩٠م.

الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، الجزء الثاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

القرطبي، الجامع لأحكام القرآن الجزء التاسع، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٣٩م

الصالح، صبحي إبراهيم، الإسلام ومستقبل الحضارة، دار الشورى، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.

محمد عبد العزيز مرزوق، الإسلام والفنون الجميلة، دار الكتب المصرية، ١٩٤٤م.

غليون، برهان، اغتيال العقل، سلسلة موفم صاد، الجزائر، ١٩٩٠م.

كاريل، ألكسيس، الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد، دار المعارف، بيروت.

النجار، الإيمان بالله وأثره في الحياة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٧٧.

النجار، عمر عبد المجيد، خلافه الإنسان بين الوحي والعقل، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

النجار، عمر عبد المجيد، في فقه التدين فهما وتنزيلا (جزءان)، سلسلة كتب الأمة، وزارة الشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

ثَبْت المصادر والمراجع باللغة الإنجليزيّة اللاتينيّة:

thabt almasadir walmarajie biallughat al'injlyzyt allatynyt:

'ahmad alsayid eali ramadani, aleilm waldiyn bayn al'iislam walfikr algharbii dirasat muqaranati, maktabat jazirat alwardi, almansurati, masri, 2016m

'abu alsulayman, eabd alhumid 'ahmadu, 'azmat aleaql almuslima, dar alhudaa, eayn mililati, aljazayar, altabeat althaaniatu,1413hi, 1992m.

abn nabi, shurut alnahdati, tarjamat eumar kamil misqawi, eabd alsubur shahin, dar alfikr aljazayiri, dar alfikr dimashqa, altabeat alraabieat 1407hi, 1987m.

abn nabi, mushkilat al'afkar fi alealam al'iislami, tarjamat basaam barakat wa'ahmad shaebu, dar alfikr aljazayir, dar alfikr dimashqa, altabeat al'uwlaa, 1413hi, 1992m.

abn nabi, maliki, milad mujtamiein, shabakat alealaqat aliajtimaeiati, tarjamat eabd alsubur shahin, dar alfikr aljazayiri, dar alfikr dimashqa, altabeat althaalithata, 1406hi, 1986m.

abn nabi, maliki, mushkilat althaqafati, dar alfikr dimashqa, altabeat althaalithati, 1986mi.

abn nabi, malkin, fi mahabi almaerakati, dar alfikri, altabeat alraabieati, 1988m

aishfitzir, 'albirti, falsafat alhadarati, tarjamat eabd alrahman badwi, dar al'andils, altabeat althaaniatu, 1400hi, 1980m.

aljabri, muhamad eabid, wijhat nazar nahw 'iieadat bina' qadaya alfikr alearabii almueasiri, markaz dirasat alwahdat alearabiati, altabeat althaaniati, bayrut, 1994m.

aljabri, muhamad eabidu, almuthaqafun fi alhadarat alearabiat mihnat abn hanbal wanakbat aibn rushd, markaz dirasat alwahdat alearabiati, altabeat al'uwlaa, bayrut, 1995m

jawdat, saeid, hataa yughayiruu ma bi'anfusihim, altabeat al'uwlaa fi aljazayir, 1990m.

alshaatibiu, almuafaqat fi 'usul alsharieati, aljuz' althaani, dar almaerifati, bayruta, altabeat althaalithata, 1417hi, 1997m.

alqurtubiu, aljamie li'ahkam alquran aljuz' altaasie, alqahirata, dar alkutub almisriati, 1939m

alsaaliha, subhi 'iibrahimi, al'iislam wamustaqbal alhadarati, dar alshuwraa, altabeat al'uwlaa, 1982mi.

muhamad eabd aleaziz marzuqi, al'iislam walfunun aljamilati, dar alkutub almisriati, 1944m.

ghiliun, birhani, aghtial aleaqli, silsilat muafam sad, aljazayar, 1990mi.

karili, 'aliksis, al'iinsan dhalik almajhuli, taerib shafiq 'aseadu, dar almaearifi, bayrut.

alnajari, al'iiman biallah wa'atharih fi alhayati, dar algharb al'iislami, altabeat al'uwlaa, 1977.

alnajari, eumar eabd almajidi, khilafuh al'iinsan bayn alwahy waleaqla, dar algharb al'iislamii, altabeat al'uwlaa, 1407hi, 1987m.

alnajar, eumar eabd almajid, fi fiqh altadayun fahman watanzilan (juz'ani), silsilat kutub al'umati, wizarat alshuwuwn al'iislamiati, aldawhat, altabeat al'uwlaa, 1410hi.